كتب

مقاومة لم تنته
كيف تتخلّص الدولة الأفريقية من أمراضها؟

محمود منير

حاولت الأدبيات الأوروبية أن تقنع الأفارقة بأن أيّ تطوّر عاشته قارتهم أتى نتيجة غزوات الشعوب البيضاء لها. منذ نهاية الأربعينيات، سعى المؤرخ السنغالي شيخ أنتا ديوب (1923 – 1986)، إلى تفكيك جملة تحيّزات غربية ظلّت تمارس هيمنتها حتى بعد نيل جميع البلدان الأفريقية استقلالها، وهو توجّه فكري سيتدعّم لاحقاً ويوفّر عناصر في فهم مصير القارة.

في كتابه «الدولة المستحيلة في أفريقيا.. مسارات متناقضة»، الذي صدر عن «الآن ناشرون وموزعون» (2020)، ينطلق الباحث المصري حمدي عبد الرحمن حسن من عملية إدماج القارة السمراء في الاقتصاد الرأسمالي العالمي بوصفه أساس تشكّل دولها المعاصرة.

تتمثّل الإشكالية الأساسية عند دراسة الواقع الأفريقي يقود إلى تحدي المفاهيم والنظريات السائدة في سياقات أخرى من العالم، بحسب الكتاب، الذي يستشهد برؤية المفكر الكاميروني أشيل مبيمبي حول إشكالية دراستها بطريقة جديدة لا تُكرّر التحيزات نفسها «تحت ستار آخر».

يذهب حسن في مقدّمته النظرية إلى تبني منظور تاريخي طويل الأمد، بمقدوره أن يفسّر لنا سبب استمرار التدافع الغربي على استغلال الموارد الأفريقية، كما لو كانت ملكاً طبيعياً له، ويتأتى ذلك بالاعتراف بوجود أوجه تشابه في جميع أنحاء القارة تعمل كعوامل دافعة نحو الوحدة في المجتمعات الأفريقية التقليدية الأصيلة خلال الفترة من القرن التاسع قبل الميلاد، أي قبل العصر المسيحي، وحتى عام 1500م.

وفق هذه المقاربة، يشير المؤلّف إلى بروز وتطوّر مجتمعات متباينة من حيث التقاليد والعادات والسياسات المتبعة، والتي تكيّفت مع تحديات العصر في مرحلة ما قبل الاستعمار، ثم ما لبثت أن انهارت وفقاً للسنن الكونية في قيام الدول وسقوطها، متتبعاً معظم النماذج التي ظهرت في هذا السياق.

من أبرز تلك النماذج، حالة كلّ من بوجندة في أوغندا التي أدّت تقاليد الحصاد الخاصة بزراعة الموز، ومعتقدات الدين، وأرواح الأجداد، إلى التأثير في عملية تشكيل ونشأة الدولة، وقيام البوتاكا (أرض العشيرة)، كوعاء جغرافي محدد لها، وكذلك بلاد الأشانتي في غانا التي جعل توافر الذهب فيها الحصولَ على العمالة أمراً ممكناً ما جعل السيطرة على الغابات متاحة بتحويلها إلى فضاءات زراعة.

يتناول الكتاب أنماط أنظمة الدولة قبل الاستعمار باستخدام معايير عدة، مثل درجة المركزية في حكمها، ونطاقها الإقليمي، موضّحاً أبرز ملامحها التي تتصل بوجود قادة تاريخيين، مثل إمبراطور مالي منسى موسى، الذي توثّق المصارد التاريخية رحلته لأداء الحج، والملكة أمينة التي حكمت زاريا واتسكت وعُرفت بالحكمة والشجاعة.

كما يجمع بين هذه الدول، بحسب حسن، دور التجارة والسيطرة على الطرق كعامل مهم في تشكيلها، واعتمادها على الغزو من أجل التوسّع، والأهمّ من ذلك كلّه مواجهتها الاستعمار الأوروبي والتصدي له خلال القرن السادس عشر، حيث أفشلوا دخول البرتغاليين، ليبدأ الغرب باستخدام وسائل أخرى للتدخل في السياسات الداخلية للدول الأفريقية حتى استطاع السيطرة عليها.

وبالعودة إلى كثير من المنظّرين والمفكّرين الأفارقة، فإن الأنظمة الحاكمة لدول ما قبل الاستعمار قامت على ديمقراطية اتفاق الرأي، أو ما سُمّيَ «تقاليد اجتماعات الشجرة»، والتي اتخذت أسماء عديدة، مثل الكغوتلا وهو اجتماع عام أو محكمة عرفية في بوتسوانا، وكانت تصدر قراراتها عبر الحوار، والبونغي الذي يوجد في التقاليد البانتوية الجنوب أفريقية وتعني «حلقات التعلم»، وكانت تناقش جميع القضايا المتعلّقة بمصلحة الجماعة.

نسفت أوروبا كلّ هذه الهياكل السياسية والاجتماعية، التي تنطوي على مكوّن أخلاقي في كثير من الأحيان، بحسب الكتاب، وتم استبدالها بهياكل الدولة الاستعمارية والتي اعتمدت مبدأ السيادة بمفهومه الغربي المخالف لمعظم الثقافات الأفريقية، وتم إدماج الأفارقة ضمن الاقتصاد العالمي، لتصبح دولة الاستعمار مجرّد قشرة رقيقة تخفي ملامح كائن اجتماعي حيّ، يمارس حياته في العوالم الخفية للاقتصاد الرسمي والإطار السلطوي المصاحب له، ما جعل نضال الأفارقة صراعاً وجودياً من أجل البقاء.

تقاسم الأوروبيون القارة في مؤتمر برلين لعامي 1884 و1885، ولم تنج منه سوى إثيوبيا وليبيريا، ثم حرمت ألمانيا من حصتها من القسمة باعتبارها دولة مهزومة بعد الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918). تمكنت الدول المستعمرة من تملّك الأراضي عبر القهر العسكري وعبر الرشوة والإقناع، وكانت على دراية مسبقة بأحوال مستعمراتها بفضل أنشطة المستكشفين والإرساليات التبشيرية.

بعد ذلك، بدأت الإدارة الاستعمارية في تطبيق سياسة استيعاب كاملة تشمل نشر التعليم والثقافة والسيطرة الكاملة على الاقتصاد واعتبار تلك المستعمرات جزءاً من البلد المركز كما في نموذج فرنسا، ما خلق فجوة هائلة بين الأفارقة المستوعبين وغير المستوعبين.

ومارس الحكم البلجيكي توحشاً لا يوصف، حيث جرى تأسيس دولة «الكونغو الحرة» بوصفها إقطاعية شخصية للملك ليوبولد الثاني، بينما اعتمد البريطانيون أسلوب حكم غير مباشر لجأ إلى إدماج الملوك والزعامات القبلية طوعاً أو كرهاً مع الإبقاء على كثير من سلطاتهم التقليدية المتمثلة بجباية الضرائب وتوفير العمالة الرخيصة مقابل خضوعهم للسياسات الاستعمارية، في براغماتية واضحة سلكتها لندن التي اكتشفت أنها لن تستطيع حكم هذه الأراضي الممتدّة بلا مساعدة أعوان محليين، ولعب البرتغاليون بدورهم سياسة تمزج بين الأفكار الفرنسية والبريطانية.

منحوتة «كساء بيجو» للفنان الغاني إل اناتسوي (Getty)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

العنصرية في أميركا مقالات أساسية
ثالوث العرق والإثنية والقومية

سناء أمين

كانت العنصرية في أميركا موضوعًا للبحث العلمي الجاد لعقود، وتعرف المكتبة الأكاديمية كتباً كانت الأكثر تأثيرًا حول هذا الموضوع، وقد قامت «منشورات جامعة هارفارد» باختيار مقتطفات من هذه الكتابات وجمعها في مجلد بعنوان «العنصرية في أميركا (قارئ)»، وهو بمثابة دليل لمن يريد الاطلاع على الكتابات المفتاحية الأساسية في المسألة، وقد أتاحت الجامعة الكتاب الصادر مؤخراً مجاناً للتحميل على موقعها، كنوع من الدعم لحركة «حياة السود مهمة» حيث أتاحت «هارفارد» مع اندلاع الاحتجاجات بعد مقتل جورج فلويد، العديد من الكتب التي تتناول تاريخ العنصرية في أميركا للتحميل للقراء في كل مكان.

يتضمن الكتاب مجموعة مقالات في التاريخ والقانون وعلم الاجتماع والطب والاقتصاد والنظرية النقدية والفلسفة والفن والأدب، فهو دعوة إلى فهم العنصرية ضد السود من خلال أعين مجموعة من أبرز الكتّاب والمحللين، وبمقدمة كتبتها أنيت غوردون ريد المؤرخة الأفروأميركية والأستاذة في جامعة هارفارد.

تقول ريد في مقدمتها «بعد سنوات من الاستغلال المفرط للمجتمعات السوداء وعنف الشرطة ضد الأميركيين من أصل أفريقي، وعمليات القتل الفادحة لرجال ونساء وأطفال عزّل في البلاد اندلعت الاحتجاجات عندما قتل أحد أفراد الشرطة جورج فلويد في مينيابوليس، مينيسوتا، في مايو (أيار) 2020. وشاهد الحدث، الذي تم تصويره بالفيديو، الملايين حول العالم. وكأن سدًا قد انكسر، شارك آلاف الأشخاص في مظاهرات في كل ولاية من الولايات الخمسين... انتشر الغضب عبر الحدود والمحيطات. خرج الناس في بلدان من جميع أنحاء العالم بأعداد كبيرة للتعبير عن غضبهم بشأن ما حدث ولربط والملونين، بشكل عام) التي كانت موجودة منذ قرون. السياسات الحالية شكّلها ذلك التاريخ الذي يجب أن يخضع للتدقيق والنقد».

الكتاب يتناول نظام العبودية بالعموم حتى وإن كان عنوانه يخص أميركا، حيث تفكك المقالاتُ التي يضمّها الطموحات الإمبريالية التي عطلت حياة السكان الأصليين في أفريقيا وأميركا اللاتينية والمشرق العربي وصولاً إلى الهند وشرق آسيا، إذ يبدو أن الماضي ما زال يغذي اللحظة الراهنة والرغبة الحالية في الحساب مع هذا الماضي.

سيجد قارئ الكتاب مختارات مهمة حول المسألة، من أبرزها وصف الروائية توني موريسون للوجود الأفريقي في الخيال الأدبي الأميركي الأبيض في مقال تحت عنوان «اللعب في الظلام: البياض والمخيلة الأدبية»، الذي كتبته عام 1992 وحازت عنه جائزة البوليتزر، وكذلك تصوير المؤرخ الأميركي والتر جونسون لأكبر سوق للعبيد في البلاد في مقال «روحاً فروح: الحياة داخل سوق العبيد قبل الحرب». كما يتضمن الكتاب مقال «المثلث القاتل: العرق والإثنية والقومية»، للمنظّر البريطاني من أصل جامايكي ستيوارت هول.

ومن بين المقالات الأحدث نقرأ «إدانة السواد: العرق والجريمة وصنع أميركا الحضرية الحديثة»، لخليل جبران محمد، ويفكك فيه الكيفية التي ألصقت بها الجريمة بالعرق الأسود. في الكتاب عشرات المقالات عن المرأة وسياسات الاغتصاب، والسجون وبرامج الرعاية الاجتماعية وطلاب الجامعات وفجوة الثروة.

إلى جانب احتوائه على أوراق لكتّاب من أصول مختلفة، نظرًا لأن تجارب الأشخاص الملونين في العموم هي جزء لا يتجزأ من تاريخ العنصرية وغالبًا ما تكون مرتبطة بقصة الأميركيين السود، من هنا تضمّن المجلد مقالات تركز على نضالات الأميركيين الأصليين واللاتينيين والآسيويين أيضًا.

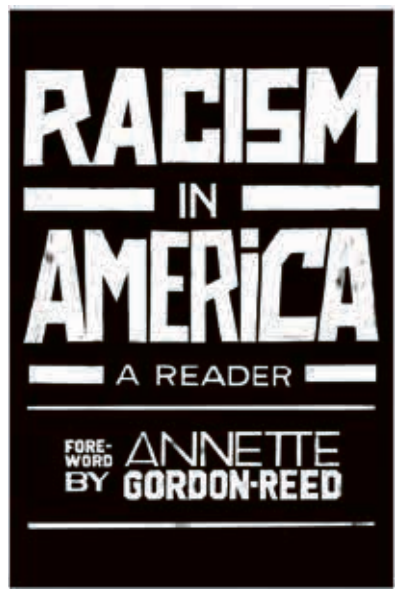

> تجارب الملونين في العموم هي جزء لا يتجزأ من تاريخ العنصرية

الحدث بالمشاكل القائمة على العرق في بلدانهم». وتضيف: «على الرغم من أن وفاة جورج فلويد كانت الشرارة، إلا أنها كانت أيضاً سبباً في إدراك أن الظروف التي أدت إلى ما حدث هي ظروف منتظمة، نتاج سنوات عديدة من الأفكار والاختيارات والأفعال. لقد فهم الناس أيضاً أن التاريخ كانت له أهمية كبيرة في هذا الأمر، ولا سيما التاريخ المعذّب للعرق وتفوّق البيض (لا مجرد مسألة أبيض وأسود، ولكنها تتعلق بالأشخاص البيض

نظرة أولى

صدر حديثاً عن «منشورات هارفارد» كتاب بعنوان **أطفال الزلزال** للباحثة جانيت بورلاند. يبحث العمل في أصول البنية التحتية اليابانية الحديثة للقدرة على الصمود. بالاعتماد على مصادر غير مستكشفة سابقاً، تكشف بورلاند بوضوح أن ثقافة اليابان المعاصرة للتأهّب للكوارث وقدرة شعبها على الاستجابة بهدوء في أوقات الطوارئ هي نتيجة لسلوكيات تم تعلمها وممارستها، وتعود جذورها إلى زلزال كانتو الكبير عام 1923 الذي قتل أكثر من مئة ألف شخص عندما ضرب منطقة طوكيو التي أدّت إلى إقرار برامج في المدارس لتعليم الاستعداد للأزمات.

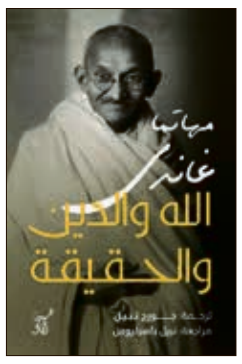

بترجمة جورج نبيل، صدر مؤخراً عن «آفاق» كتاب **الله والدين والحقيقة** للزعيم الهندي مهاتما غاندي، وهو عمل يجمع مقالاته ذات البعد التأمّلي، والتي صدر معظمها بين سنتيْ 1919 و1933 ضمن جرائد أطلقها غاندي بنفسه ضمن حركة النضال ضد الاستعمار البريطاني؛ مثل «الهند الفتاة» و«هاريجان». يُظهر هذا الكتاب أن وراء الأفكار السياسية التي عُرف بها الزعيم الهندي أبعاداً روحانية؛ ومن ذلك نظرية اللاعنف والاعتماد على المنتج المحلي، كما تُظهر المقالات الفكر الإيكولوجي لغاندي، والذي جرى اكتشافه في السنوات الأخيرة.

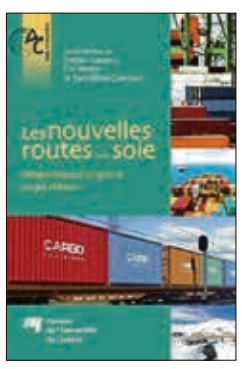

طرق الحرير الجديدة: جيوبولتيك مشروع صيني ضخم عنوان كتاب جماعي صدر مؤخراً عن «منشورات جامعة كيبيك» بإشراف الباحث الكندي فريديريك لاسير. يقدّم العمل نظرة حول ما يُعرف بطرق الحرير التاريخية التي كانت الشريان التجاري الأساسي في العصور الوسطى وجعلت من الصين قطباً موزاياً للشرق العربي وأوروبا مجتمعين. لتوضيح المشروع الجديد، يفسّر العمل سياقات صعود شي جين بينغ للحكم مبرزاً العلاقة بين الكاريزما السياسية ومثل هذه المشاريع. يشير المشاركون إلى أن «طرق الحرير الجديدة» تعيد للتجارة البرّية مكانة أساسية في اقتصاد العالم.

صدرت حديثاً عن «دار الرافدين» ترجمة لـ **يوميات ومذكرات ألكسندر بوشكين**، أنجزها المترجم محمد خميس. وهذه اليوميات التي تركها الشاعر والكاتب الروسي ظلت سرية إلى أن اكتشفت عام 1976 وجرى تهريبها من الاتحاد السوفييتي. وكان هناك الكثير من التكهنات والغموض المحيط بهذه اليوميات. ونصت وصية بوشكين على عدم نشر اليوميات إلا بعد مرور مئة عام على وفاته. ادعى بعض الناس أن المذكرات، التي تكشف تفاصيل غير معروفة عن حياة بوشكين وجانب من حياته العاطفية، لم تكن موجودة على الإطلاق، وإلى اليوم ثمة شكوك حول صحة نسبتها إليه.

عن منشورات «جامعة منوبة» و«المعهد العالي للحركة الوطنية»، صدر مؤخراً كتاب **أزمنة الحركة الطلابية التونسية** للمؤرّخ التونسي محمد ضيف الله، والذي يتتبّع الفترة بين 1910 وصولاً إلى بداية تسعينيات القرن الماضي، أي من بدايات الحركة الطلابية في تونس في إطار التعليم التقليدي واحتكاكه بالتحوّلات العميقة التي فرضها الاستعمار الفرنسي منذ 1881. يمرّ الكتاب بمحطّات أساسية تُظهر الأدوار التي لعبها الطلبة كإحدى أبرز شرائح التغيير الاجتماعي والسياسي في البلاد، وهي محطات تعيد إضاءة تاريخ تونس المعاصر من زاوية قلما جرى اعتمادها.

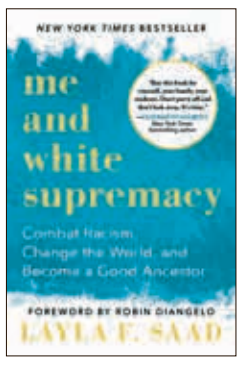

أنا واستعلاء البيض: محاربة العنصرية، وتغيير العالم، وأن تصبح سلفاً صالحاً عنوان الكتاب الذي صدر حديثاً للكاتبة البريطانية من أصول أفريقية ليلى سعد عن «منشورات سورس»، ويتناول قضايا العِرق والهوية والقيادة والتحوّل الشخصي والتغيير الاجتماعي، بتقديم روبن دي أنجيلو. تتناول المؤلّفة مجموعة محاور مثل اختبار امتياز الأبيض من خلال الاعتقاد بأن الثقافة والقيم والأعراف البيضاء هي المركز الطبيعي للعالم، ومناهضة السواد والقوالب النمطية العنصرية والهيمنة الثقافية، وكيفية تغيير الطريقة التي تنظر بها إلى العرق وتستجيب له.

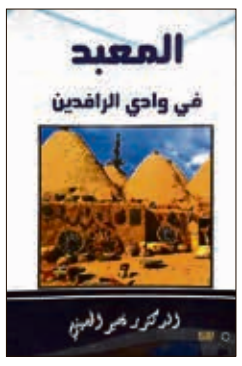

صدر حديثاً عن «دار الفرات» كتاب **المعبد في وادي الرافدين** للباحث نصير الحسيني. يعود العمل إلى بدايات التعبّد في العراق قبل نحو ستّة عشر ألف عام كما تُظهره اكتشافات أثرية في منطقة أورو بالقرب من الناصرية، ثم ينتقل إلى مركزية قصة الخليقة البابلية في الحضارات القديمة، وكيفية ظهور المعبد على شكل مصطبة عالية تطورت إلى برج مدرج، وكيف بدأ تقديم النذور والهدايا للآلهة التي تسكن المعبد من أجل أن تحمي البلاد من الغزو والشرور الأخرى، وصولاً إلى تصميم المعبد وتوزيع قاعاته وحضور السحر وتراكم المعتقدات.

عن «دار النخبة»، صدر حديثاً كتاب **الأدب البيئي ونهاية العالم.. الوباء والكارثة وفرص الإنقاذ** للباحثة المصرية ريهام رفعت محمد. يتناول الكتاب الموضوعات التي شغلت العالم بعد انتشار «كوفيد-19» ونهاية العالم كما صورتها الآداب والفنون والسينما، في تركيز على أهمية استخدام القصص البيئية لإعادة التوافق بين الإنسان والبيئة، وطرق إدارة الأزمات من خلال الموسيقى البيئية، والإيكودراما وتعزيز التربية البيئية والتعليم من أجل الاستدامة، كما يعرض بعض النماذج التطبيقية لقصص ومسرحيات وأغانٍ في مواجهة الأوبئة.